

أيها الثوار: تقوهون بأعمال كثيرة والمطلوب واحد

جوزف عبدالله*

كعادة للتشهير بالطبقة الحاكمة وبالدولة الفاشلة... إنّ حلّ المشكلات الاجتماعية: من رفع الغبن والظلم عن المواطنين، ومكافحة الفقر والبطالة وتوفير مستلزمات الصحة وسبل العيش الكريم، وتحقيق العدالة ومكافحة الفساد، ووقف التهريب، وإسقاط تحكّم حينئذ المال بالمواطنين، وبناء الاقتصاد الوطني المنتج، وحماية الوطن من العدوان الصهيوني ومجاهبة الغطرسة الأميركية والمساهمة في تحرير فلسطين وإعادة النازحين السوريين إلى وطنهم... إنّ كل ذلك هو أهداف مركزية للثوار وللثورة. ولكن ذلك لا يمكن أن يفعله الثوار ولن ينجحوا به، لأنه لن يكون بوسع الثوار فعله بغير تحقيق مسألة مركزية إليها يجب بالضرورة أن تصبو وتتجه كل ممارسات الثوار أولاً بأول: إسقاط النظام السياسي وإعادة بناء السلطة السياسية. وبدون ذلك تذهب عبثاً كل أنشطة ونضالات الثوار، وتنهزم الانتفاضة فلا تبلغ الثورة حكماً. عندما يتمكن الثوار، عندما تتمكن الثورة، من إسقاط النظام ومن إعادة بناء السلطة السياسية، عند ذلك فقط، يبدأ الشروع بعملية تحقيق العدالة الاجتماعية والإصلاح الإداري والقضائي والجرمي وغير ذلك... المطلوب من الثوار هو النضال السياسي الجذري، لا النضال المطلبي. وعليه، فالمطلوب من الثوار هو النضال من أجل أمر أساسي، عنه ولا بديل له: إسقاط النظام السياسي وإعادة بناء السلطة السياسية. هذا الهدف في ظل الظروف الراهنة، يستلزم تحقيقه السلمي (لغياب التفكير أو لغياب الرغبة بالثورة غير السلمية، أو الانتفاضة المسلحة) العمل بكل صبر وثبات وباستمرار من أجل بناء كتلة شعبية واسعة وحاشدة، تكون هي صاحبة مشروع إسقاط النظام وإعادة بناء السلطة السياسية، وقادرة على ذلك بضغتها كحركة شعبية جماهيرية فعلاً. هذه هي المهمة المركزية التي على الثوار وعلى أحرابهم ومنظماتهم وجمعياتهم القيام بها: بناء الكتلة الشعبية، وبناء الكتلة الشعبية معناه: العمل في الأوساط الاجتماعية صاحبة المصلحة في الثورة. والعمل في النقابات الفلاحية والعمالية، ولو كانت تحت هيمنة ووصاية الأحزاب المعادية للثورة أو الطامحة لركوب موجتها (أحزاب وتيارات المستقبل وجنابلات والقوات والكتائب حركة أمل وحزب الله والقوى التقليدية وغيرها...).

المطلوب العمل والنضال والتعبئة في الأحياء الشعبية والأوساط الفلاحية في الريف والقرى، والتواصل مع العاطلين عن العمل، ومع الشبيبة في الثانويات والجامعات، وفي أحياء المدن والريف.

إنّ بناء الكتلة الشعبية (استقطاب المواطنين للمشاركة والاندرج العضوي في أنشطة بالشكل الذي لا يثير اشمئزاز المواطنين ورفضهم ولا يستنفر مشاعر العداء للثورة، إنّ قطع الطرق بواسطة الحواجز الحديدية والعوائق الترابية وركن السيارات مع حضور عدد محدود من المناضلين أمر لا يتقبله الجمهور ويمكن للقوى الأمنية أن تتصدى له بكل فعالية أمنية ودعائية. هذا فضلاً عن أنه غير جائز أخلاقياً وثورياً وخصوصاً مع إهراق الدوابل وإشعال الحرائق.

إنّ المسيرات الشعبية الحاشدة بالإلاف (لا بالعشرات أو المئات)، تسمح للمناضلين بقطع الطرق بشكل تلقائي، وتجعل المواطنين اللامبالين وغير المؤيدين للثورة يتقبلون الانتظار وساعات قطع الطرق احتراماً لهذه الجموع البشرية الهاتفة في الشوارع، كما أنّ هذه المسيرات الشعبية الحاشدة تترك أثراً قوياً في القوى الأمنية التي لا تستطيع غير احترام أبناء شعبيها، وتترفع عن قمعهم الذي لا يكون سهلاً في هذه الأحوال. إنّ الحشود الشعبية الكبيرة (الكتلة الشعبية) تستطيع محاصرة المراكز الحكومية وتستطيع اقتحامها إن هي تجاوزت بحجمها عشرات الآلاف وأكثر، وهي كثيراً ما تكسب تعاطف القوى الأمنية وتردها في ممارسة القمع لخشيبتها من الجموع التي لا يكون لها ولغبتها أحياناً في المشاركة في الانتفاضة. وعندما تبلغ الكتلة الشعبية حجماً قادراً على محاصرة مراكز السلطة يسقط النظام، وتحصل عملية إعادة بناء السلطة السياسية، وهذه السلطة الجديدة تقوم باتخاذ الإجراءات الكفيلة بتحقيق العدالة الاجتماعية ومكافحة الفساد ووقف الهدر وتحقيق التنمية الاجتماعية والقضاء على الفقر...

ما هي الكتلة الشعبية؟ لتتوقف قليلاً أمام مفهوم الكتلة الشعبية لأن ذلك يساعدها في فهم كيفية النضال لبنائها. الكتلة الشعبية هي حالة تعيشها الجماهير سميتها التواصل بين الوعي والممارسة، والتواصل بين واقعه الاقتصادي الاجتماعي وقراراتها السياسية، هي اللحظة التي تشكل فيها القوى الشعبية وجهة نظر نقدية وعلمية في

”

بناء الكتلة الشعبية لتبلغ بحجمها ما يتجاوز عشرات الآلاف وتدخل في حجم مئات الآلاف هذه هي المهمة الأساسية للثوار

إنّ الشروط الموضوعية في الاجتماع السياسي

تفكك عميق وقلق كبير داخل بنية الأحزاب الطائفية

“

محمل المجتمع بهدف عملي، الاستيلاء على السلطة وتغييرها وممارستها.

الكتلة الشعبية مفهوم استراتيجي يعني حالة اجتماعية وسياسية مطلوب بناؤها. الكتلة الشعبية تعني ظهور تشكيل مختلف في المجتمع المدني، كما تعني ظهوراً كبيراً لأشكال مختلفة في السياسة والتنظيم والخطاب... يشير مفهوم الكتلة الشعبية إلى علاقة خاصة بين السياسة والاقتصاد، إنها نموذج اجتماعي واقتصادي بديل. يتضمن مفهوم الكتلة الشعبية علاقة خاصة بين جماهير واسعة من الطبقات الدنيا والممارسات الفكرية الجديدة، فضلاً عن ظهور أشكال جديدة من الثقافة الجماهيرية، النقدية والمستمرّة في النضال السياسي. تنطوي استراتيجية تكوين الكتلة الشعبية على محاولة إعادة إحياء وإعادة تعريف مفهوم الشعب، فهل الشعب يتكون من رعايا طوائف أم من مواطنين في دولة؟ هذا ما يشير إلى عملية معقدة، سياسية وقانونية واجتماعية في آن واحد، يمكنّ الناس من خلالها من الظهور من جديد في حالة نضال، ليس كموضوع (مفعول به) للسياسة البرجوازية، ولا «كجماعة منخيلة»، بل كمحالفه محتملة فاعلة

في مناهضة الرأسمالية وفي مجابهة محالفة أطراف الطبقة الحاكمة. وتكون الكتلة الشعبية مكونة من جموع من أبناء الطبقات الاجتماعية التي تعتمد بشكل أو بآخر في تأمين عيشها على قوة عملها. كما تتضمن أيضاً أشكالاً جديدة لوحدة الشعب، وخصوصاً ضد الانقسامات الناتجة عن الطائفية والعنصرية والمناطقية.

إنّ الشروط الموضوعية في الاجتماع السياسي الطوائفي تشير إلى حالات تفكك عميق وقلق كبير داخل بنية الأحزاب الطائفية (كما أشرنا في مطلع المقال). ولم تعد الهيمنة الطائفية وقدسية القيادات الطائفية موضع احترام وتقدير لدى الجماهير الشعبية. فالبنية السياسية الطائفية تعيش ارتدادات زلزالي اجتماعي سببتّه (وستعمقه بالضرورة) الأزمة الاقتصادية. الاجتماعية. لم يعد بوسع نظام المحاصصة الطائفية تلبية حاجات الزبائنية الطائفية القائمة على فساد السلطة والنهب العام. ولم يعد بوسع أي تيار طائفي (أو حزب سياسي) التجاوب مع الحاجات الاقتصادية الاجتماعية لجمهور طائفته. وهو بالكاد يستطيع تلبية حاجات المترزمين من الكوادر والعناصر، أي ما لا يتجاوز الألاف من الكوادر الملتزمة، بينما جمهور الطوائف الأساسية يبلغ المليون والنصف. وهذه الحالة هي المدخل الفعلي والموضوعي لإعادة تكوين الشعب اللبناني، كمواطنين أفراد، لا كرعايا طوائف. وهنا منطلق بناء الكتلة الشعبية.

بناء الكتلة الشعبية (لتبلغ بحجمها ما يتجاوز عشرات الآلاف وتدخل في حجم مئات الآلاف) هذه هي المهمة الأساسية للثوار. ولكن هذه المهمة لا يتم إنجازها بشكل عفوي بل هي تستلزم وجود أداة لازمة وضرورية لبناء الكتلة الشعبية. هذه الأداة تكمن في مبدأ التنظيم، بل في التنظيم بالذات سواء تجسد في ما نسميه الحزب أو التيار أو الجماعة أو التحالف أو... إنّ عملية بناء الكتلة الشعبية تستلزم أداة سياسية على كفاية عالية من حيث الوعي والمهارة التنظيمية والتعبوية والإعلامية. تستلزم حزباً (أو أكثر - محالفة حزبية) على جاهزية فعلية للقيام بهذه المهمة، وهذا غير متوافر الآن بالمستوى المطلوب. فهناك طموح لتكوين هذه الأداة، أو هذا الحزب (أو المحالفة الحزبية)، أو بالأصح إعادة تكوينه وتنشيطه، وإعادة توحيده، وإخراجه من أزلماته الداخلية وضمور علاقته مع قطاعات المجتمع.

إنّ مبدأ التنظيم هو المسألة الأساسية في كل ثورة. والتنظيم المقصود هنا هو تنظيم الأداة القادرة على النضال من أجل بناء الكتلة الشعبية. تعني تنظيم الحزب (أو المحالفة الحزبية) الذي عليه تقع مسؤولية بناء الكتلة الشعبية. وبما أنّ بناء الكتلة الشعبية يكمن (من ضمن شروط تحققه) في الوصول إلى حالة من الوعي الشعبي فيها تصل قناعات وعواطف الجموع الشعبية رافضة لطروحات طبقة الرأسمالية ومحالفة الطبقة الحاكمة، وقابلة بطروحات الحزب (أو المحالفة الحزبية) لتحركات الجماهير الشعبية.

إنّ الطبقات الشعبية تكون خاضعة لأفكار البرجوازية المهيمنة في المجتمع. وذلك لسبب بسيط، كما يرى لينين، لأنّ الإيديولوجيا البرجوازية أسبق من الاشتراكية، وهي أكمل من كل الوجوه ولديها الكثير من وسائل انتشارها. كما أنّ الطبقات الشعبية لا تتطور وتكتسب عفويًا الأفكار الثورية. وهنا يأتي دور الحزب (المحالفة الحزبية) في تنظيم الجماهير الشعبية، وفي طليعة مهام التنظيم بناء الأفكار والمشاعر. ومن هنا الحاجة إلى أداة (أدوات) إعلامية وتعبوية للطبقة الحاكمة (ومحالفاتها) وسائل إعلامها الكثيرة من الفضائيات إلى الإذاعات إلى المطبوعات اليومية والأسبوعية المتنوعة. فكيف تبني الطبقات الفقيرة وسائل تعبئتها الفكرية ووسائل إعلامها؟

دور الجريدة في التنظيم والانتفاضة هل بوسع القوى الثورية، الحزب (أو المحالفة الحزبية) شنّ الحرب الإعلامية والتعبئة الفكرية ومناقسة قوى المحالفة البرجوازية؟ بالطبع يستطيع الحزب ذلك، وإن كان يفتقر إلى الفضائيات وكثافة المطبوعات.

فبالوسع الاستفادة من إذاعة الحزب الشيوعي اللبناني المتواضعة (وتطويرها)، كما بالوسع الاستفادة من وسائل التواصل الاجتماعي وتنظيم الحملات التعبوية من خلالها وتنسيق هذه الحملات. ولكن الأداة الأساسية والتي لا يُستغنى عنها هي الجريدة الاشتراكية المركزية (لنقل جريدة «النداء» بعد تطويرها بما يلائم وظيفتها الجديدة). وهنا، ليست الجريدة مجرد مؤسسة فكرية وتعبوية. لتتذكر أنّ خاتمة مؤلف لينين «ما العمل؟» كانت الدعوة إلى تأسيس جريدة لعامة روسيا. ولقد اعتبر لينين أنّ الجريدة أكثر بكثير من أداة فكرية. فالجريدة، برأي لينين، «منظم جماعي» يلعب دوراً كبيراً في بناء الحزب (التنظيم) وفي بناء الكتلة الشعبية وفي بناء كادرات الانتفاضة. فالجريدة بحاجة إلى شبكة من الأعضاء «العملاء»، وقرئها من الأعضاء المنظمين والمنضبطين. وهذا النشاط يعزز التواصل مع أوسع شرائح الطبقات الفقيرة.

ليست الجريدة الثورية (جريدة الحزب أو المحالفة الحزبية أو الانتفاضة) مجرد «هيئة تحرير» تدبج المقالات والتحليلات في برج مكاتب التحرير. لقد اعتبر لينين إنه لأمر حيوي أن تلعب الجريدة دور المنظم. وتبنت «البرافدا» مجموعة من المراسلين من العمال الذين كانوا يقدمون التقارير في كتاباتهم عن المشاكل والنضالات في أمكنة عملهم. وبذلك فسحت الجريدة للقرّاء المعزولين مجال تعلم تجارب مجمل الطبقة العاملة. وكان تمويل الجريدة مسألة سياسية. فتمويل الجريدة مسؤوليّة قرّائها. ومع أنّ العمال كانوا من الفقراء فقد وجد لينين أنه يجب تشجيعهم على المساهمة ولو ب مبلغ زهيد (كوك). كما أنه لم يرفض مساهمة الأغنياء المتعاطفين، بيد أنّ المساهمة المنتظمة من العمال كانت أكثر أهمية. وهذا ما كان يضمن أن العمال يعتبرون «البرافدا» جريدتهم التي ستوقف بدون دعمهم.

يقول لينين في الجريدة في «حول هذا العمل الذي هو بريد جداً وصغير جداً بحد ذاته، ولكنه منتظم وعام بكل معاني الكلمة، بتعباً بصورة منتظمة ويتعلم جيش دائم من مناضلين مجريين». ويقول في أي مكان آخر: «تصوروا... الانتفاض الشعبي. يتراءى لنا أنّ الجميع يوافقنا اليوم (في شباط 1902) على ضرورة التفكير به والاستعداد له. ولكن كيف نستعد؟ أتري يجب أن تعين اللجنة المركزية عملاء في كل المناطق لتحضير الانتفاض؟! ولكن اللجنة المركزية، إنّ كانت موجودة عندما، لا تستطيع أن تبلغ شيئاً في الظروف الروسية الراهنة عن طريق مثل هذا التعيين. وعلى عكس ذلك، شبكة العمال التي تتألف من تلقاء نفسها في العمل على تنظيم وتوزيع الجريدة العامة، فهي لن «تنتظر مكتوفة الأيدي» شعار الانتفاض، بل ستقوم على وجه التحقيق بعمل منتظم يضمن لها أكبر إمكانات النجاح في حالة الانتفاض. وهذا العمل بالذات يؤثّق الصلات باوسع جماهير العمال ويجمع الفئات الساخطة على الاستبداد، وهو أمر كبير الأهمية بالنسبة إلى الانتفاض».

باختصار، الجريدة أداة تنظيمية مركزية. فهل يستطيع الحزب (المحالفة الحزبية) إعادة تفعيل جريدة «النداء» (على سبيل المثال) لتكون أداة تنظيمية بالدرجة الأولى؟ من المعروف أنّ «النداء» لا تتوزّع كما يجب، ولا تشكل صلة وصل بين الجماهير والانتفاضة (بل بين الجماهير والحزب بالذات). فهل يمكن إعادة تفعيل دورها؟ هل يمكن بناء صلة وصل بين الانتفاضة والجماهير بواسطة الجريدة؟ كيف يجب العمل لتكوين شبكة من المراسلين حول الجريدة، شبكة مراسلين من المواطنين العاديين لا من الكوادر العليا فحسب؟ فيها يعبر المواطن العادي، العامل أو الفلاح أو العاطل عن العمل أو المفصول من عمله، أو التاجر الذي أقلل محله، أو الحرفي والصنّاعي الصغير الذي أقلل محترفه... عن همومه اليومية تصبح هناك شبكة متكاملة من الهموم الموحدة التي ينطق بها أصحاب العلاقة مباشرة.

باختصار شديد الرّمن قيمة نضالية، وطالما هو متوفر يجب استخدامه واستغلاله بكل دقة وتصميم وكثافة. فهل يفعل المنتفضون قبل فوات الأوان؟

*كاتب لبناني



(مروان ططح)